الحافظ جلال الدين الدين السيوطي [1]
ومنهجه في التأليف.
" التوشيح شرح الجامع الصحيح للبخاري"[2]
نموذجا.

أ.د عبد القادر سليماني

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة وهران

هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي الشافعي المسند المحقق المدقق، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة.

ولد بعد مغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، (849هـ)، وعرض محافيظه على العز الكناني الحنبلي، فقال له ما كنيتك فقال: لا كنية لي، فقال: "أبو الفضل"، وكتبه بخطه.

وتوفي والده، وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر، وقد وصل في القرآن إذ ذاك إلى سورة التحريم، وأسند وصايته إلى جماعة منهم الكمال بن الهمام، فقرره في وظيفة الشيخونية.

وختم القرآن العظيم، وله من العمر دون ثمان سنين، ثم حفظ عمدة الأحكام ومنهاج النووي وألفية ابن مالك ومنهاج البيضاوي، وعرض ذلك على علماء عصره وأجازوه، وأخذ عن الجلال المحلى والزين العقبي، وأحضره والده مجلس الحافظ ابن حجر رحمه الله.

وشرع في الاشتغال بالعلم من ابتداء ربيع الأول سنة أربع وستين وثمانمائة:

-فقرأ على شمس الدين محمّد بن موسى السيرائي الحنفي صحيح مسلم إلا قليلا منه والشفا وألفية ابن مالك، فما أتمها إلا وقد صنف، وأجازه بالعربية، وقرأ عليه قطعة من التسهيل، وسمع عليه التوضيح وشرح الشذور، والمغنى في أصول فقه الحنفية، وشرح العقائد للتفتازاني.

-وقرأ على الشيخ الإمام الصالح شمس الدين محمد ابن الشيخ سعد الدين بن سعد بن خليل المرزباني الحنفي الكافية لابن الحاجب، وشرحها للمصنف، ومقدمة ايساغوجي في المنطق وشرحها للكاتي، وسمع عليه من المتوسط والشافية وشرحها للجاربردي، ومن ألفية العراقي، ولزمه حتى مات سنة سبع وستين.

-وقرأ في الفرائض والحساب على علامة زمانه شهاب الدين أحمد بن عليّ الشارمساحي.

-ثم لزم دروس علم الدين صالح البُلقيني، من شوال سنة خمس وستين، فقرأ عليه ما لا يحصى كثرة -ولزم أيضا شرف الدين المناوي أبا زكريا يحيى بن محمد إلى أن مات (ت:871) ، وقرأ عليه ما لا يحصى.

-ولزم دروس محقق الديار المصرية سيف الدين محمد بن محمد الحنفي، ودروس العلامة تقي الدين الشمني الحنفي(ت:872)، ودروس محيي الدين محمّد بن سليم الكافيجي (ت:879).

وقرأ على قاضي القضاة العزّ أحمد بن إبراهيم الكنان، وفي الميقات على مجد الدين بن السباع والعز بن محمد الميقاتي، وفي الطب على محمد بن إبراهيم الدواني لما قدم القاهرة من الروم، وقرأ على التقي الحصكفي والشمس البابي، وغيرهم، وأجيز بالإفتاء والتدريس.[3]

وقد ذكر تلميذه **الداودي** أسماء شيوخه إجازة وقراءة وسماعا مرتبين على حروف المعجم، فبلغ عددهم أحدا وخمسين نفسا.[4]

تلاميذه:

أخذ عنه العلم وتخرّج عليه كثيرون، نذكر منهم: عبد القادر بن محمّد الشاذلي المصري، وشمس الدين محمّد الداودي، وشمس الدين محمّد بن يوسف الشامي، وشمس الدين محمّد بن علي، الشهير بابن طولون الدمشقي، ومحمّد بن بدر الدين بن محمّد رضي الدين الغزي،وشمس الدين محمّد بن محمّد، الشهير بابن العجيمي المقدسي الشافعي، وآخرون.[5]

ولما بلغ أربعين سنة أخذ في التجرد للعبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والاشتغال به صرفا، والإعراض عن الدنيا وأهلها، كأنه لم يعرف أحدا منهم.

وشرع في تحرير مؤلفاته، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلف سماه بالتنفيس، وأقام في روضة المقياس، فلم يتحول منها إلى أن مات، ولم يفتح نوافذ بيته التي على النيل من سكناه.

وتوفي الشيخ العلامة الحافظ أبو الفضل جلال الدين السيوطي المصري الشافعي رحمه الله تعالى في يوم الجمعة، وقت العصر تاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة (911هـ)، على إثر ورمٍ شديد أصاب ذراعه اليسرى استمرّ سبعة أيام, وصلّى عليه تلميذه الشعراني بجامع الأباريقي تحت القلعة، ودفن بشرقي باب القرافة، وقد أتمّ من العمر إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً.

آثاره العلمية.

أخذ الحافظ السيوطي عن جماعة من علماء وقته ودرس الفلسفة والرياضيات, فصار أوسع نظراً وأطول باعاً من مشاهير فضلاء عصره، وكتب في كلّ موضوع مصنفاً بأقواله وأدلته النقلية والقياسية.

وشرع في الاشتغال بالعلم من مستهلّ سنة (864 هـ)، وأوّل شيء ألّفه كان "شرح الاستعاذة والبسملة", وقد شهد له بالتقدم في العلوم ورزق التبحُّر في ثمانية علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع واللغة[6]، وسافر إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور، وأفتى من سنة (878هـ).

واستقصى تلميذه **الداودي** أسماء **مؤلّفاته** الحافلة الكثيرة الكاملة الجامعة النافعة المتقنة المحررة المعتمدة المعتبرة، فنافت عدتها على خمسمائة مؤلف (500)، وشهرتها تغني عن ذكرها.

ولا شك أن توفيق الله سبحانه وتعالى, كان فوق الأسباب جمعيها التي هيأت للسيوطي تأليف هذه الكتب, ولو لم يكن له من الكرامات إلا كثرة المؤلفات مع تحريرها وتدقيقها لكفى ذلك شاهداً لمن يؤمن بالقدرة.[7]

وأهم أسباب هذه العطاء العلمي النادر:

1- خدمة الحافظ السيوطي للعلم, ورغبته في البحث العلمي ونشره, والتصدّر في التأليف جمعا وتهذيبا وشرحا وتعليقا.

2- استثمار الوقت، والبعد عن الحياة العامة, والمجاملات الاجتماعية الفارغة التي لا تليق بأهل العلم أصلاً.

3- كثرة المصادر بين يديه, فقد ترك له أبوه مكتبة زاخرة بالمصنفات, وكان يتردد منذ صغره على المدرسة المحمودية , وبها مكتبة كبيرة من أنفس الكتب الموجودة في القاهرة.

4- أسلوبه في التأليف, فهو قد يختار مسألة من مسائل العلم, ولو صغيرة, فيفردها في رسالة مستقلة.

5- دخوله في جدال مع بعض أهل العلم, حيث كان يحفزه على التأليف لبيان وجهة نظره بتقديم الأدلة الصالحة والمقنعة.

6-وكان مما أعانه رحمه الله على التفرغ للكتابة, أنه ظلّ طويلاً متمتعاً بوظيفة المشيخة البيبرسية منذ تولاها أواخر عهد قايتباي.[8]

وقد كتب الله جلّ وعلا لمؤلفاته الانتشار, وسافَرَتْ إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور, وبلاد الروم وإسطنبول, وأورد في كتابه "التحدث بنعمة الله" أخبار من حمل كتبه التي بدأت تسير إلى الآفاق.[9]

لقد تميز السيوطي بموسوعيته فيما يكتب, وجمعه للأقوال والنقول في المسألة بحيث يشبعها تحريراً وتنقيراً, سواء كان الموضوع مخترعاً أم مجموعاً.

وكلُّ تلك الأسباب السابقة كانت سبباً في تحدّثه بمؤلفاته والافتخار بها, قال في فاتحة كتابه الاقتراح في أُول النحو وجدله: "وهذا كتاب غريب الوضع, عجيب الصنع, لطيف المعنى, طريف المبنى, لم تسمح قريحة بمثاله, ولم ينسج على منواله, في علم لم أسبق إلى ترتيبه, ولم أتقدّم إلى تهذيبه, وهو أصول النحو الذي هو بالنسبة إلى النحو كأصول الفقه بالنسبة إلى الفقه".

وفي أول كتابه الخصائص الكبرى يقول:"وهذا كتاب مرقوم يشهد بفضله المقربون, وسحاب مركوم, يحيا بوابله الأقصون والأقربون, كتاب نفيس جليس, محلّه محلّ الدرّة من ثمراته, وعبقت زهراته, وأشرقت أنواره ونيرانه, وصدقت أخباره آياته ..." الخ.

منهج السيوطي في مؤلفاته :

للسيوطي رحمه الله منهج في التأليف يمكن إيراده على الوجه التالي:

1- تلخيص كتب الآخرين والانتخاب منها, مثل ما فعله في "تاريخ دمشق" لابن عساكر (ت:571هـ) رحمه الله, و"الضوء اللامع" للسخاوي (ت:902هـ) رحمه الله وغيرهما.

2- شرحه للكتب والمنظومات، مثل شرحه على الألفية لابن مالك رحمه الله, وشواهد المغني لابن هشام رحمه الله.

3- أمانته في النقل, فهو يلتزم بعزو كل قولٍ إلى صاحبه, كما يتبيّن من مؤلفاته العديدة.

4- اختلاف حجم كتبه ما بين الورقة الواحدة والمجلدات الكبيرة.

5- ضمّ مؤلفاته لعدد من عناوين كتبه، مثل كتابه "الحاوي للفتاوى" الذي يضم نحو سبعين رسالة له.

6- تنوّع موضوعات كتبه في الفنون المختلفة.

7- نقلُه عن كتب دُثِرت الآن, مما ساعد على حفظ نصوصها لنا.

8- ذكره الأقوال المختلفة في الموضوع, مسندها إلى مَن قالها, ومناقشة الأدلّة, وبيان ترجيحه, أو توقفه عن الترجيح.

هذه أهم مظاهر منهجه في التصنيف, التي سار عليها في مؤلفاته، وسأخص بالذكر تأليفه "**التوشيح شرح الجامع الصحيح للبخاري**"، كما سماه في مقدمته، وجاء إسمه في الصفحة الأولى من **المخطوط**: كتاب شرح البخاري، المسمى ب"التوشيح في شرح الجامع الصحيح"، ويقع في "خمس ومائتين" لوحة (205ل)، ويلاحظ عليه بعض الأخطاء والتصحيفات.

اللوحة رقم (١) من المخطوطة

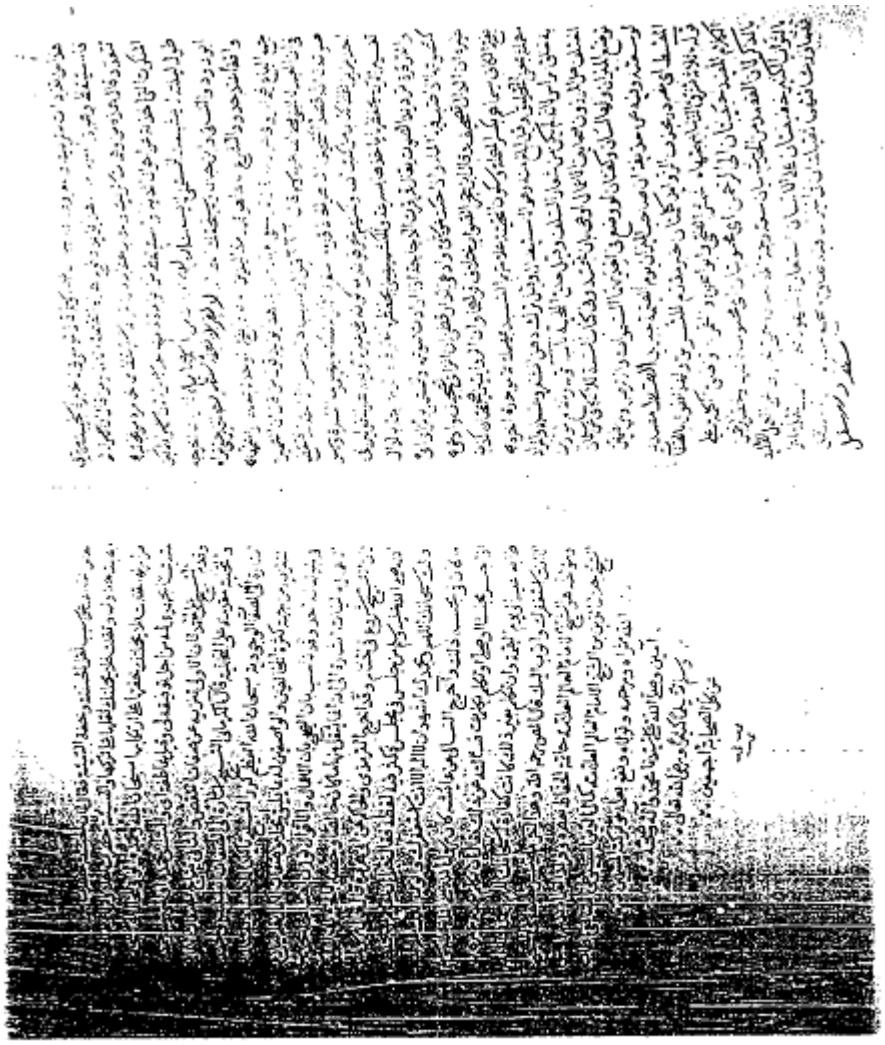

اللوحة الأخيرة من المخطوطة

خدمة المخطوط:

1-طبع الكتاب:

-بتحقيق رضوان جامع رضوان, عن دار الرشد في تسع مجلدات, سنة 1419هـ.

-ثم في دار الكتب العلمية بتحقيق علاء إبراهيم الأزهري في خمس مجلدات, سنة 1420هـ.

2-كما حقق في **رسائل جامعية** على قسمين:

- "التوشيح على الجامع الصحيح" للإمام السيوطي: دراسة وتحقيق القسم الأول من أول الكتاب إلى بداية كتاب الجنائز، لفائزة أحمد سالم بافرج، دكتوراه، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

- "التوشيح على الجامع الصحيح":دراسة وتحقيق القسم الثاني، لحياة صديق عبد الواحد، دكتوراه، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

منهج الحافظ السيوطي من خلال مقدمته لهذا الكتاب :

وقدّم-رحمه الله- بمقدمة بيّن فيها **منهجه ومقصده** من هذا التعليق, فقال:

"...هذا **تعليق** على صحيح الأستاذ شيخ الإسلام أمير المؤمنين أبي عبد الله البخاري يسمَّى: (بالتوشيح) يجري مجرى تعليق الإمام بدر الدين الزركشي المسمى (التنقيح) ونسقه, بما حواه من الفوائد الزوائد, يشتمل على ما يحتاج إليه القارئ والمستمع, من ضبط ألفاظه, وتفسير غريبه, وبيان اختلاف رواياته, وزيادة في خبر لم ترد في طريقه, وترجمة ورد بلفظها حديث مرفوع, ووصل تعليق لم يقع في الصحيح وصله, وتسمية مبهم, وإعراب مشكل, وجمع بين مختلف, بحيث لم يفته من الشرح إلا الاستنباط، وقد عزمت على أن أضع على كل من الكتب الستة كتابا على هذا النمط, ليحصل به النفع بلا تعب, و بلوغ الأرب بلا نصب, حقق الله تعالى ذلك بمنه وكرمه".اهـ[10]

فيكون المصنّف قد صدّر كتابه بهذه المقدمة التي أعلن فيها عن منهجه في الكتاب, وما يعدّ من مميزاته, ثم أتبع ذلك بفصول تتعلق بصحيح الإمام البخاري, وهي:

1-**فصل بيّن فيه شرط البخاري وموضوعه،** وما فضل به صحيح البخاري على صحيح مسلم, وبسطه التراجم والأحاديث.[11]

2-**فصل في تسمية من ذكر في الصحيح بكنيته،** مرتباً على حروف المعجم، قال: حرف **الألف**: (أبو الأحوص):التابعي، عوف بن مالك-(أبو الأحوص): من طبقة حماد بن زيد، اسمه: سلام بن سليم-(أبو إدريس الخولاني): عائذ الله بن عبد الله... إلى قوله حرف **الياء**: (أبو يعلى الثوري): بالمثلثة والراء: منذر-(أبو يعلى التوزي): بالمثناة وتشديد الواو وزاي: محمد بن الصلت-(أبو اليمان): الحكم بن نافع. [12]

3-**فصل في النساء**:(أم حبيبة): أم المؤمنين، رملة بنت أبي سفيان-(أم حرام): بنت ملحان، هي الغميصاء...(أم هانئ بنت أبي طالب): فاختة، وقيل:هند-(أم يعقوب): لها قصة مع ابن مسعود، ولم يسم.[13]

4-**فصل في التعريف بمن ذكر بالبنوّة،** مرتباً على حروف المعجم، قال: **حرف الألف**: (ابن أبزي): عبد الرحمن-(ابن أبزي عن أبيه): سعيد بن عبد الرحمن-(ابن أخي الزهري): محمد بن عبد الله بن مسلم...إلى قوله: **حرف الياء**: (ابن أبي يعقوب): محمد بن عبد الله (ابن يعمر): يحيى-(ابن يونس): أحمد بن عبد الله بن يونس اليربوعي.[14]

5-**فصل في التعريف بمن ذكر بلقب أو نسب،** قال: **الألف**:(الأحول):عاصم بن سليمان-(الأزرق): إسحاق بن يوسف-(الأشجعي): عبيد الله بن عبد الرحمن...إلى قوله **النون**:(النبيل): أبو عاصم الضحاك بن مخلد-(أبو الزناد): لقب، وكنيته: أبو عبد الرحمن.[15]

6-**فصل في ضبط ما يخشى اشتباهه ولا يؤمن التباسه من الأسماء(16)**, وهو قسمان:

- **الأول**: ما يشتبه بغيره في الكتاب - يعني داخل الصحيح.

الألف: (أبي) بالضم وفتح لموحدة ثم ياء مشددة: جماعة، وليس في الكتاب اسم إلا كذلك، وقد وقع في حديث عائشة :"وبعث بها مع أبي"، والثانية للإضافة، وكذا قول حذيفة:"أبي أبي".

(أسيد) كله بالضم سوى"أبي بصير عتبة"، وقيل:"عمر بن أسيد بن جارية" بالفتح.

(أفلح) كله بالفاء سوى "عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح"، فالبقاف...إلى قوله: **الياء**: (يزيد): كثير، وبموحدة وراء مصغر:"ابن عبد الله بن أبي بردة"، واختلف في "أبي يزيد عمرو بن سلمة".

- **الثاني**: ما لا يشتبه بغيره في الكتاب.

الألف: (أحمد) كله بالحاء، (الأعور) كله بمهملتين، (الأغر) بمعجمة وراء ...إلى قوله: **الياء** (ياسر) بمهملة، (يسرة) بفتح الياء والمهملة والراء، (يعفور) بسكون المهملة وضم الفاء آخره راء، (يعمر) بالفتح وسكون المهملة، وفتح الميم وراء .

7- **الفصل السادس: في المهمل**.

(إسحاق) غير منسوب، إن قال:"أخبرنا"، فهو "ابن راهويه"، ولأنه لا يعبر عن شيوخه إلا بصفة الإخبار؛ و(علي) إذا أطلق فهو"ابن المديني"... [17]

- ثم شرع المصنف في شرحه وتعليقه فكان من منهجه:

1- **ضبط الألفاظ المشكلة**, واتبع المصنف في ذلك طريقتين:

الأولى: ضبط اللفظ المشكل بالحروف.

الثانية: ضبطه بالشكل, وهذا أقل من الأول, ولم يستوعب المصنف هذا.

2- **تفسيره الكلمات الغريبة**, معتمداً في ذلك على كلام من تقدّمه من العلماء: كالقاضي عياض, والنووي, وابن حجر, وغيرهم، ولا يمنعه ذلك من التعقّب عليهم, والتنبيه على زيادة مفيدة, وترجيح غير ما رجّحوه, لكنه لم يستوعب في ذلك.

3- **بيانه لاختلاف روايات البخاري**: فكان من منهجه في ذلك:

- إثباته لما اتفق عليه أكثر الرواة. أ

ب- ثم يتبعه ببيان من خالف في ذلك.

ج-ومع التتبع يُعلم أن المصنف كان يعتمد على رواية أبي ذرّ عن شيوخه الثلاثة: الحافظ أبو عمرو أحمد بن المبارك المستملي النيسابوري (ت:284 ه)، وأبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت:490ه)، أبو الفتح محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي توبة الكشميهني المروزي (ت:548ه).

ح-مع العلم أن المصنف لم يعتمد التنبيه على جميع الاختلافات, وإلا لطال الكتاب وخرج عن كونه تعليقاً.

4- **بيانه لكثير من الزيادات** الواردة في خبر لم يرد من طريق البخاري, وترجمة ورد بلفظها حديث مرفوع, ووصله لتعليق لم يقع في الصحيح، وكل ذلك بغير استيعاب.

5- **تخريجه لكثير من الأحاديث** وعزوها لمصادرها مع بيان درجتها من الصحة والحسن والضعف, وكان رحمه الله في الغالب يتابع الحافظ ابن حجر في ذلك.

6- **تسميته لمبهم** ورد في سند الخبر أو متنه.

7- **إعرابه للمشكل**.

8-**جمعه بين مختلف الحديث**, وهو في جميع ذلك يتبع شرح الحافظ الزركشي (ت:794ه) المسمّى بـ:" التنقيح", كما بيّن ذلك في المقدمة.

9-**لم يعرّج على استنباط الأحكام** من الأحاديث إلا في النادر, حيث لم يقع له ذلك إلا في مواضع قليلة من كتابه، وقد نبّه المصنف على ذلك في المقدمة، حيث قال:"لم يفته من الشرح إلا الاستنباط".

10- سار المصنف في الجملة في شرحه على **نمط الاختصار** إلا في مواضع قليلة كان يطيل النفَس في الشرح،**كحديث أم زرع**.

11- والمصنف-أحياناً- **يقدّم ويؤخر في شرح الكلمات** تحت الحديث الواحد, وأحياناً **يقدّم حديثاً على حديث**، ومردّ ذلك اختلاف نسخ الصحيح، والله أعلم.

مميّزات هذا التعليق:

يعدّ هذا التعليق من قبيل الحواشي, فهو ليس شرحاً لكلّ حديث ورد في صحيح البخاري, وإنما اقتصر فيه الحافظ السيوطي على ما رآه يحتاج إلى تعليق, فهو من هذا الباب شرحٌ مختصرٌ يتذكّر به المنتهي, ويتعلم منه المبتدئ.

وإن مما يعدّ في جانب مميزاته إضافة إلى ما تقدّم ذكره أثناء الحديث عن منهج المصنف أمور:

1- أنه بمثابة اختصار لشرح الحافظ ابن حجر (ت:852هـ)، المسمى"فتح الباري" إلا أنه ليس اختصاراً مجرّداً؛ بل زاد عليه أشياء, وأوضح روايات لم ينبّه عليها الحافظ ابن حجر, هذا بالإضافة لتعقّبه على الحافظ ومناقشته في ترجيحاته؛ بل وترجيح خلافه.

2- إيراده لمشكلات واعتراضات, إيراداً مصحوباً بكشف النقاب عن الجواب عنها, فما من إشكال إلا وأورد له جواباً.

3- تختلف طريقة المصنف عن طريقة الحافظ ابن حجر, فبينما نجد الحافظ ابن حجر يجمع طرق الحديث في أول موضع له أو في الموضع اللائق به, نجد المصنف يجعل شرحه مقتصراً على الطريق الذي أمامه, وعندما يأتي إلى طريق آخر لنفس الحديث وفيه ألفاظ مختلفة تحتاج إلى شرح وإيضاح فيوضّحها في مكانها.

الهوامش:

1- ترجم السيوطي لنفسه مرتين: الأولى في "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة":157/1- وهي ترجمة وجيزة، وقد حققه محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة البابي الحلبي-ط1-1387هـ1967م، والثانية: في كتاب: "التحدث بنعمة الله"، وقد فرغ من هذه الترجمة سنة 896هـ، وهي ترجمة موسعة، كتبها بعد سنوات من الترجمة الأولى. وفيها حديث عن والده، وشخصه، ورحلاته، ومسموعاته، ومؤلفاته، وخلافاته، مع بعض معاصريه، وتبحره في بعض العلوم، وبلوغه رتبة الاجتهاد، وأنظر ابن العماد، **شذرات الذهب:8/51-55، والسخاوي، الضوء اللامع:4/65-70، رقم203، والعيد روسي، النور السافر:51-54، والزركلي، الأعلام:3/301، ومعجم المؤلّفين:2/82، رقم:6792.**

2- المخطوط طبع لأول مرة في تسع مجلدات، بتحقيق رضوان جامع رضوان، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1998م.

3- الحافظ السيوطي، حسن المحاضرة:1/158، والنجم الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة،1/139-461.

4- مصطفى الشكعة، جلال الدين السيوطي – مطبعة الحلبي 1401هـ، 1981م.

5- عبد الحفيظ فرغلي القرني، الحفاظ جلال الدين السيوطي – سلسلة أعلام العرب (37) – الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. 1990.

6- الحافظ السيوطي، حسن المحاضرة:1/159.

7- أحمد الشرقي إقبال، مكتبة الجلال السيوطي، الرباط، دار المغرب، 1977.

8- سَعدي أبو جيب، السّيوطي عَلاّمة عَصْرِهِ – مجلة التراث العربي العدد 51 – السنة 13-أبريل1993 –دمشق.

9- الحافظ السيوطي، التحدث بنعمة الله، ص:155-159.

10-الحافظ السيوطي، التوشيح شرح صحيح البخاري، تحقيق رضوان جامع رضوان (1/41).

11-الحافظ السيوطي، التوشيح (1/43).

12- الحافظ السيوطي، التوشيح (1/49).

13– الحافظ السيوطي، التوشيح (1/79).

14– الحافظ السيوطي، التوشيح (1/81).

15– الحافظ السيوطي، التوشيح (1/96).

16– الحافظ السيوطي، التوشيح (1/103).

17– الحافظ السيوطي، التوشيح (1/124).